التاريخ: 19-03-1998 رقم العدد: 20001 الصفحة: 1 العمود: 2

العنوان: ثلاثة سيناريوهات

الكاتب: سلامة غسان

بقلم غسان سلامة لا يبدي المسؤولون الاميركان كبير اهتمام بالتصريحات الاسرائيلية، التي باتت شبه يومية، عن امكان الانسحاب من جنوب لبنان .موقفهم الرسمي يقول انها مجرّد تصريحات، وانما غير متناسقة تماماً في ما بينها، وانها لا تمثّل عرضاً حقيقياً متماسكاً يمكن لواشنطن تبنيه او رفضه .اما خارج الموقف الرسمي، فالادارة الاميركية تعلم حق العرفة بان هذه التصريحات الاسرائيلية من شأنها ان تثير مخاوف سورية عميقة من أن يؤدي تحرك اسرائيل على جبهة جنوب لبنان الى اقفال اكثر احكاماً لملف الانسحاب من الجولان، والتفاوض في شأنه متوقف تماماً منذ مطلع عام 1996. وواشنطن لا تريد البتة ان يتحول هذا التوقف الطويل الى تعثر دائم، مكرّس، ثابت. يسمع الاميركان جعجعة اسرائيلية حول جنوبنا ولكنهم لا يرون طحيناً. لكن امراً اثار اهتمامهم، وهو تسريب مفاده ان دمشق قد تكون مستعدة للقبول بفتح ملف جنوب لبنان لو ان اسرائيل تقبل بمعاودة المفاوضات مع سوريا انطلاقاً من النقطة التي كانت المفاوضات قد توقفت عندها منذ نحو سنتين. ويبدو ان اكثر من عاصمة غربية تبدي اهتماماً كبيراً بهذا الاحتمال، كما تشير الصحف الاسرائيلية الى اهتمام اسرائيلي مماثل. اما في اوروبا، فالموقف العميق قريب جداً من الموقف المعلن، وهو موقف يردده ممثل الاتحاد الاوروربي ميغيل انخل موراتينوس على مسامع الجميع، سراً وعلناً، ويكرره دونما ملل على مسامع الاميركان، ومفاده ان واشنطن تخطئ كثيراً اذ هي تبالغ بالتركيز على الملف الفلسطيني، وتهمل في الواقع، حتى لو ادعت عكس ذلك، الملف السوري - اللبناني. والالحاح الاوروبي المتزايد على ضرورة العمل "لحل شامل وعادل "بات له مضمون عملي من عنصرين متساوي الاهمية: تطبيق اسرائيل لتعهداتها الواردة في اتفاق اوسلو مع الفلسطينيين واعادة فتح فورية للملف السوري - اللبناني. اعتاد الاميركان على سماع هذه اللغة الاوروبية، بل انهم باتوا اكثر تفهماً لها، لكنهم لم يتحولوا بعد الى تبنيها. اما في ما يخص جنوب لبنان فالاوروبيون، (وهذا يعني اساساً فرنسا المهتمة دوماً بهذه المنطقة من العالم، وبريطانيا التي تبدو مهتمة من جديد بها وساعية لأن تترك بصمات لترؤسها الحالي للاتحاد الاوروبي) يجيبون الاسرائيليين بان عليهم ان يجترحوا مقترحات افضل من تلك التي وضعت على الطاولة. واذا استمع الاوروبيون بانتباه الى زوارهم من اسرائيل، فهم لا ينفكون يحددون ما لا يريدون حتى لو لم تأتِ الساعة بعد ليقولوا ما يريدون. ما ترفضه اوروبا هو فتح للملف اللبناني يؤدي عملياً الى اقفال الملف السوري، لا لأنهم اعطوا تعهدات في هذا الشأن لدمشق وحسب، بل لأنهم على اعتبارهم لخطورة الاوضاع في جنوب لبنان، يعتبرون الملف السوري اكثر اهمية وصعوبة اذا كان الحل الشامل للنزاع هو الهدف. ولا يريد الاوروبيون ثانياً مقترحات اسرائيلية تعرض عمل اللجنة الخماسية المشرفة على وقف النار في جنوب لبنان (اي مجموعة "تفاهم نيسان") للخطر، ذلك انهم ولو اقرّوا بمحدودية عمل هذه اللجنة، فانهم يعتبرون انها تسهم في تجنيب المدنيين اخطار القصف والدمار وتبقي شعرة معاوية بين الاطراف المتنازعة. ولا يريد الاوروبيون ثالثاً مقترحات اسرائيلية تدفعهم لقبول ما يرفضه اللبنانيون والسوريون، اي مناورة مكشوفة لاعادة صياغة القرار 425 وفق شروط اسرائيل تحت ستار قبولها العلني او الشكلي به. لا تناقض اذن بين مواقف واشنطن وباريس ولندن (وموسكو ايضاً التي لها من مسألة الجنوب موقف متضامن تماماً مع دمشق) من هذه الحركة الاسرائيلية المتزايدة. وبالذات فان فرنسا ليست مغشوشة بتركيز اسرائيل عليها كي تلعب دوراً مميزاً في مسألة جنوب لبنان. فالفرنسيون يعلمون تماماً ان اسرائيل تحاول دغدغة اهتمام باريس التقليدي بلبنان، والالتفاف على التشكيك الاميركي بهذا الاهتمام الاسرائيلي المفاجئ بالقرار 425 .

لا تلقى التصريحات الاسرائيلية اذن صدى مرحّباً - التتمة في الصفحة 16 - في مختلف العواصم. لكن هذا لا يعني اللامبالاة التامة. فالمسؤولون الغربيون، وامين عام الامم المتحدة معهم، لا يمكنهم ان يتصرّفوا وكأن شيئاً لم يكن. لذلك فهم قرروا الاستماع الى الزعماء الاسرائيليين ومحاولة فهم ما يريدون فعلاً من هذا التركيز المتنوع على الجنوب اللبناني. لذا هم يأخذون علماً بتحول اسرائيل للقبول بالقرار 425 حتى لو سارعوا، مثلهم مثلنا، للاشارة بانه قبول ناقص بل كاذب لأنه مشروط بينما نص القرار يشير الى انسحاب غير مشروط وغير متفاوض عليه. وهم يبدون استعداداً لنقل الموقف الاسرائيلي بامانة لمن يهمه الامر في المنطقة، ولكنهم يسارعون للتوضيح بان نقل الرسائل لا يمكن ان يعني تبني مضمونها. وهم يتنبهون للمقولات الاسرائيلية التي باتت متخلية عن السعي لاتفاق سلام وعن التطبيع ومختصرة لمجرد انسحاب ترافقه ترتيبات امنية، ولكنهم يسارعون للقول بان هذه الاهداف تناقض مبادئ مدريد كما تهدد بنسف "تفاهم نيسان". لذا ربما يبالغ اللبنانيون والسوريون بعض الشيء في تخوفهم من انزلاق هذا او ذاك من المسؤولين في العالم "فيستحلوا" العروض الاسرائيلية. من حقهم طبعا ان ينبهوا ويحذروا من مطبات المقترحات الصادرة عن تل ابيب ومن حقهم ايضا ان يبينوا تعارضها ونص القرار 425 (ناهيك بالتفسير الرسمي لذاك القرار من قبل امين عام الامم المتحدة انذاك والذي يضع الانسحاب في مرحلة سابقة وتعاون لبنان واسرائيل مع القوة الدولية في مرحلة ثانية، بالضرورة لاحقة). اما "الترتيبات" التي يتحدث عنها القرار فليست بالضرورة امنية وهدفها في اي حال، وفق القرار المذكور، "التعجيل بالانسحاب الاسرائيلي". كما ان لبنان على حق لو ركز (وهو ربما لا يركز كفاية) على الاختلاف الجوهري في الصياغة بين الجزم الواضح بضرورة الانسحاب الفوري من جهة والكلام غير الجازم القائل انه "قد يكون من الضروري ان تتعاون الحكومتان مع القوة الدولية" الخ... مما يعطي حجة قوية للبنان لرفض العروض الاسرائيلية في شكلها الحالي والى تنبيه الدول الكبرى والامم المتحدة للمخاطر المتأتية عنها. وكان للبنان ان يكتفي بهذه المحاججة العلنية مع اسرائيل حول نص القرار 425 وروحه لو ان اسرائيل، خلال تحريكها لملف جنوب لبنان، تسعى فقط لمبارزات دعاوية تملأ صفحات الجرائد ولا تشفي غليل احد. صحيح ان لهذه الحملة الاسرائيلية في عواصم العالم اهداف دعاوية واضحة كمثل وضع اللوم على سوريا وكأنها العقبة الكأداء امام التوصل الى حل في جنوب لبنان او كأنها سبب استمرار الاحتلال الاسرائيلي لجزء منه. وكمثل حرف الانظار عن رفض نتنياهو تنفيذ التعهدات التي اخذتها على نفسها حكومة اسرائيل السابقة وفقا لاتفاق اوسلو، ورفضه بالتالي لمحاولات واشنطن وغيرها من العواصم تنفيذ ما يمكن من ذاك الاتفاق. وفي المجال الدعاوي عينه تسعى اسرائيل خصوصا الى زرع الشكوك المتبادلة بين دمشق وبيروت خلال التلميح الدائم بان هناك بين زعماء لبنان من يضمر في السر ما لا يقوله في العلن من استعداد لدرس العروض الاسرائيلية بل ربما لقبولها مما من شأنه ان يوقظ شكوك سوريا حول نوايا اللبنانيين - وهي سريعة الاشتعال- وان يدفع بالتالي هؤلاء الى المزايدة الرخيصة (التي نرى يوميا ونسمع) حول تمسكهم لا بالتضامن والتنسيق فحسب بل بتلازم المسارين واخيرا بوحدتهما المطلقة. بل انزلق بعض ساسة لبنان الغيورين على طمأنة سوريا للدعوة الى تزامن في الانسحاب من جنوب لبنان ومن الجولان وهو امر يتجاوز قدراتهم بكثير ولا تأثير لرغباتهم المعلنة في شأنه مما دفع امين عام "حزب الله" للدعوة لقدر من الرصانة)بقوله ان ما من لبناني سيمنع اسرائيل من الانسحاب غير المشروط لو هي نوت عليه) وهي عودة مباركة نحو الرشد الذي تفتقده احيانا كثيرة طبقة سياسية تسعى في جلها لطمأنة سوريا بغية الاطمئنان المقابل لاستمرارها. لكن الحركة الاسرائيلية قد لا

تكون دعاوية فحسب، بمعنى ان هدفها قد يكون مزدوجا: دعاوي في القصير من الامد وعلى السطح، واكثر من ذلك ان امكن، وهذا بالذات ما تسعى عواصم العالم لاختباره من خلال استماعها الدقيق للعروض الاسرائيلية ومساءلتها الفجة حولها ومن خلال دعوتها الحكومة الاسرائيلية لتحديد موقف موحد ومتماسك من الموضوع، بدلا من تصريحات نتنياهو وشارون وموردخاي وتسريبات لوبراني وتهديدات كهلاني ومشاريع بيلين وهي مواقف صحافية يصعب (حتى على من يعتبرون انفسهم في العالم من اصدقاء اسرائيل) ان يوفق بينها لتعددها وتنوعها بل لتناقضها التام، وكأن اسرائيل تنوي شيئا ما وتتخبط بحثا عنه بين سيناريوات ثلاثة مختلفة جوهريا: اول السيناريوات كان الغالب حتى امد قريب لكنه بات اليوم مستبعدا في الظاهر وهو التوصل مع لبنان الى اتفاق سلام كامل كذلك الذي دعا اليه اسرائيل في مدريد ثم في واشنطن. تقول اسرائيل اليوم، على لسان لوبراني، انها تخلت عن هذا الهدف، واصبحت لا تسعى لا لاتفاق سلام ولا للتطبيع التام مع لبنان وانما فقط لترتيبات امنية. غير انه من السهل الرد بأن هذا التخلي لا يمكن ان يكون الا موقتا، لأن من مصلحة اسرائيل ان تطور اي اتفاق امني الى سلام كامل، والى اعتبار الترتيبات الامنية خطوة اولى في هذا الاتجاه. ثم ان هذا الموقف، المتساهل في الظاهر، يتضمن في طياته استبعادا حقيقيا لامكان التوصل لاتفاق سلام مع سوريا في المنظور من الزمن، مما يعني تهدئة لجبهة جنوب لبنان، المريحة اسرائيليا، دون اي مقابل لدمشق. السيناريو الثاني هو الذي يتحدث عنه موردخاي، ويعرضه يوسي بيلين، وتميل اليه المؤسسة العسكرية في ما يبدو، وهو اتفاق على الترتيبات الامنية لا يستبعد سوريا بل يدعوها لكي تكون احد ضامني اي اتفاق .المقاربة هنا تتم تحت مظلة القرار 425، ولكن بعد اعادة صياغته عمليا لكي يتضمن، مما لا يتفق مع نصه البتة، مفاوضات امنية تسبق الانسحاب، وفترة اختبار قبل تنفيذه. ويسهل الرد هنا بان هذا الاحتضان الاسرائيلي الجديد للامم المتحدة، لقراراتها كما لقوتها المنتشرة في الجنوب، مجرد مدخل لفظي هدفه مسايرة شكلية لتمسك اللبنانيين شبه اللاهوتي بالقرار 425، انطلاقا لجرهم لتوقيع اتفاقات امنية لا طاقة لهم عليها ولا رغبة لهم فيها. وقد تقدم اسرائيل لاحقا، وفقا لهذا المنطق، بعرض التوصل لهذه الاتفاقات دونما مفاوضات ثنائية مباشرة مع لبنان، انما من خلال اطراف اخرى دولية تتوسط وتصيغ وتضمن مفاوضات غير مباشرة بين الطرفين. وقد انصب الجهد السوري واللبناني اخيرا على رفض هذه العروض، وعلى تنبيه الاطراف الدولية المختلفة الى مغبات تسنمها لدور كهذا. يبقى السيناريو الثالث وهو الاكثر غموضاً وفي الارجح الاكبر خطراً وهو الانسحاب الاسرائيلي دونما تفاوض ولا اتفاق. هذا ما يدعو اليه البعض في اسرائيل لاسباب ذاتية (كحركة الامهات اللواتي يردن اخراج اولادهن من "كابوس" جنوب لبنان بسرعة وبأي ثمن) او، على العكس، لاسباب محض مكيافيلية (مثل اريل شارون). يرى البعض ان شارون، بعرضه المفاجئ الانسحاب من جانب واحد وعلى مراحل، يسعى اساسا لاجهاض اي رضوخ اسرائيلي للضغوط الدولية الراهنة لانسحاب محدود من الضفة الغربية، يعارضه وزير الدفاع الاسرائيلي الاسبق بعنف. لكن شارون، مهندس غزو لبنان سنة 1982، يعلم ايضا ولا شك ان هناك طرقا للانسحاب من لبنان تجلب عليه ما يكفي من الويلات لكي ترتاح اسرائيل بعض الشيء كما حصل في الشوف والشحار وغيرها من المواقع عامي 1983 - 1984. وهذا بالذات ما يجعل عرضه مقلقا بل مخيفا. لو كانت الحركة الاسرائيلية دعاوية فحسب، لارتاح لبنان وارتاحت سوريا وارتاحت عواصم العالم معهما. لكن هذه الحركة قد لا تكون دعاوية فحسب وفي تلك الحالة فان الخطر قد يأتي من محاولات اسرائيل الخروج من المستنقع اللبناني بالوسائل غير الديبلوماسية اي بانسحاب مفاجئ ملغم من جانب واحد او من خلال تحريك عسكري للجبهة يهدف لارغام بيروت ودمشق على القبول قسرا بما ترفضاه من خلال التصريحات المعسولة. من هنا لا يكفي انهماك اللبنانيين بمحاججة اسرائيل على مواقفها العلنية ولا يكفي تحذيرهم دول العالم من الانزلاق الى تفهم غير مبرر وغير مسؤول لتلك المواقف. بل عليهم ايضا الاستحضار لامكان ان يكون الانسحاب الاسرائيلي من الجنوب قد بات هدفا حقيقيا لدى قادة اسرائيل قد يسعون اليه اما من خلال المواقف المشوشة او من خلال استعمال القوة .نقول: انها امكان وليست يقينا، لكن درهم الوقاية بات ضروريا لان تحول هذا الامكان الى واقع لن تنفعه آنذاك قناطير من العلاج.